﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾ [الطارق: 1 - 4]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مِن إحاطةِ الله تعالى بخلقِه حفظُه أعمالَهم ليُحاسِبَهم عليها

لَمّا تقدَّم في آخر سورة البُروج أنَّ القرآنَ في لوحٍ محفوظٍ؛ لأنَّ مُنْزِله سبحانه محيطٌ بالجنود المُعاندينَ وغيرِ المُعاندين؛ أقْسَمَ تَعالى في صَدْرِ سورةِ الطّارق على أنَّ مِن إحاطَتِه حِفْظَ كلِّ فرد من جميع الخلائق المُخالفين والموافقينَ والمُؤالفين؛ ليُجازَى كلٌّ على أعمالِه يومَ إحقاقِ الحَقائقِ وقَطْعِ العَلائق[1].

❁ شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾: (طرق) أرْبَعَةُ أُصولٍ؛ مِنْها: الإتْيانُ مَساءً، ومنه: الطُّروقُ، وهو إتْيانُ المَنْزِلِ لَيْلًا، ورَجُلٌ طُرَقَةٌ إذا كانَ يَسْري حَتّى يَطْرُقَ أهْلَهُ لَيْلًا؛ وذُكِرَ أنَّ ذَلِكَ يُقالُ بالنَّهارِ أيْضًا، لَكِنَّ الأصْلَ هوَ اللَّيْلُ، والدَّليلُ عَلى أنَّ الأصْلَ اللَّيْلُ تَسْمِيَتُهُمُ النَّجْمَ طارِقًا؛ لِأنَّهُ يَطْلُعُ لَيْلًا، ما يعني أنَّ التَّعبيرَ عَنِ النَّجْمِ بالطّارِقِ؛ كان لاختِصاصِ ظُهورِه باللَّيْلِ[2].

2) ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾: (ثقب) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ،؛وهوَ أنْ يَنْفُذَ الشَّيْءُ، يُقالُ: ثَقَبْتُ الشَّيْءَ أثْقُبُهُ ثَقْبًا؛ ومنه: الثّاقِبُ بمعنى: المُضيءُ الذي يثْقُبُ بنورِه وإضاءتِه ما يقع عليه، قال تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: 10]، و﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾: نَجْمٌ يَنْفُذُ السَّماواتِ كُلَّها نورُهُ[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 370، 371.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (طرق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (ثقب).

3) ﴿حَافِظٌ﴾: (حفظ) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلى مُراعاةِ الشَّيْءِ، يُقالُ: حَفِظْتُ الشَّيْءَ حِفْظًا؛ أي: حَرَسْتُهُ، وحَفِظْتُهُ بمعنى: استَظْهَرْتُهُ، والحَفَظَةُ: الملائكةُ الذين يكتُبونَ أعمالَ بني آدم[1]، والمعنى المحوريُّ: حياطَةٌ قويَّة ضابطَةٌ للشَّيء، فلا يَضيعُ ولا يَتَفَلَّت، كحِفْظ المال لا يضيعُ ولا يُنتَقَص بخيانَةٍ أو سرِقة أو سوء تدبير، وكحفظ الكلام والقرآن والأعمال، بمعنى: التَّقييد والضَّبط، قال اللهُ سُبْحانَهُ: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنبياء: 82]، وقال أيضًا: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

على كلِّ نفسٍ حافظٌ يحفَظُ عليها عَمَلَها ورزقَها وأجلَها

في هذه الآياتِ الكريمة يُقْسِم اللهُ تعالى بالسَّماء المعروفةِ، والنَّجْم الذي يَنْفُذُ نورُهُ في السَّماوات كلِّها على أنَّه تعالى جَعَلَ على كلِّ نَفْسٍ عاقلةٍ مِن نُفوسِ خَلْقِه ملائكةً يكتُبونَ عليها أعْمالَها، صغيرَها وكبيرَها، دقيقَها وجليلَها، حتَّى تُخْرَجَ لها يوم القيامة كتابًا تَلْقاهُ مَنْشورًا، كما جُعِلَ هؤلاء الكَتَبَةُ يَحْفَظونَ على تلك النُّفوس رِزقَها وأجلَها، فإذا اسْتَوْفى الإنسانُ أجلَه ورزقَه قُبِضَ إلى ربِّه تَعالى؛ ليُحاسِبَه على ذلك كُلِّه[3].

❁ الإيضاحُ اللّغويّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ في صَدْرِ السّورةِ:

في القَسَمِ تشويقٌ إلى المُقْسَمِ عليه وإشعارٌ بأهَمّيَّة المُقْسَمِ به

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ هي واوُ القسَمِ، الدّالَّةُ على أهمّيَّة ما يُقْسِمُ به اللهُ تعالى وعلوِّ شأنِه، والمُشَوِّقةُ إلى المُقْسَم عليه، والمُشيرةُ إلى ضرورةِ التَّنبُّه عليه، ففي "افتتاح السّورة بالقَسَم تشويقٌ إلى ما يَرِدُ بعده وإشعارٌ بأهمّيَّة المُقسَم عليه، وهو مع ذلك

(1) الجوهري، تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة، وابن فارس: مقاييس اللُّغة: (حفظ).
(2) محمد جبل: المعجم الاشتقاقي: (حفظ).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 119.

يَلْفِتُ البابَ السّامعين إلى الأمور المُقْسَم بها؛ لأنَّ بعضَها مِن دلائل عظيمِ القُدْرَةِ الإلهيَّة المُقْتَضيَةِ تفَرُّدَ الله تعالى بالإلهيَّة وإبطالِ الشَّريك، وبعضُها مُذَكِّرٌ بقُدْرَةِ الله تعالى على البَعْث، ورمزٌ إلى تحقيقِ وُقوعِه؛ إذِ القَسَمُ لا يكون إلّا بشيءٍ ثابتِ الوُقوع، وبعضُها بما فيهِ مِنَ الإبهامِ يوجِّه السّامعين إلى تَطَلُّب بيانِه"[1].

دلالَةُ القَسَمِ بـ (السَّماءِ):

لا جِـــدالَ في شَـرَفِ السَّماءِ وعَظَمَتِها، ولا شـكَّ في قُـدرةِ خالِقِها ورافِعِها

افتَتَحَ النَّظمُ الكريمُ السّورةَ - التي تُثبت أنَّ الذي أخرج الإنسانَ مِن بَيْنَ الصُّلب والتَّرائب، وخلَقَه من ماء دافقٍ؛ قادرٌ على إرجاعِهِ وبَعْثِه بعدَ أنْ يموتَ ويصيرَ تُرابًا - بالقَسَم بـ (السَّماءِ) التي لا يُجادِل أحدٌ في شَرَفِها وعظَمَتِها، ولا مجالَ للشَّكِّ في قُدْرَةِ الله تَعالى خالقِها ورافعِها، والتي يَهْدي مجرَّدُ النَّظر إليها والتَّفكرُ فيما تحويهِ من بدائع الصُّنع إلى عظيمِ قدرةِ الله تعالى على حِفْظِ أعمالِ كُلِّ نَفْسٍ، وقُدْرَته أيضًا على أمر الإرجاعِ والحِساب، الذي يُعَدُّ هيِّنا إذا قورِنَ بشَيْءٍ مِمّا فيها؛ كالشَّمسِ أو القمَرِ أو النُّجوم أو اللَّيل أو النَّهار أو الطّارق، أو غير ذلك مِمّا يعدُّ أدلَّةً وبراهينَ تُثْبِت أنّ قُدْرَةَ الله تَعالى لا يُعْجِزُها أيُّ شيءٍ، أيًّا كان ومَهْما كانَ[2].

وَجْهُ العَطْفِ بالواوِ:

الطّارق يُماثِلُ الـسَّـمـاء في غرائبِ القُدْرةِ وعـجـائِـبِ الصَّنعةِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾ لعَطْفِ ما بَعْدَها على (السَّماءِ) عَطْفَ الخاصِّ على العامِّ، أو عطفَ الجُزْءِ على الكُلِّ، وأوثرَ عَطْفُه بالواوِ التي تُفيدُ المُشاركة في الحُكْم للدَّلالة على مُماثلَةِ (الطّارِقِ) لـ (السَّماءِ) في العظمَةِ وبديع الصُّنع، والدَّلالة على قُدرة الله تَعالى على كُلِّ الأمور بوجهٍ عامٍّ، وعلى أمْرِ الإرجاعِ والحسابِ بوجهٍ خاصٍّ، فبَعْدَ "أن أقسَمَ الله بالسَّماء؛ لِما لها مِنَ الشَّرف والمجد؛ تنبيهًا على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 237.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 371، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 258.

ما فيها مِن بدائعِ الصُّنع الدّالَّة على القُدْرَة الباهِرة، أقسَم بأعجَب ما فيها وهو جِنْسُ النُّجوم ثُمَّ بأغْرَبِه؛ وهو المُعَدُّ للحِراسَة؛ تنبيهًا على ما في ذلك مِن غرائِبِ القُدْرَةِ"[1].

بلاغَةُ القسَمِ بـ ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾:

للنُّجوم فوائِدُ معنويَّةٌ وأخرى حسّيَّة، لا يقومُ بها مخلوقاتٌ غيرُها

(الطّارِقِ) في الأصل وصفٌ مُشتقٌّ من الطُّروق، وهو: المجيءُ ليلًا؛ لأنَّ عادة العرب أنَّ النّازل بالحيِّ ليلًا يطرُقُ شيئًا مِن حَجَرٍ أو وتدٍ؛ إشعارًا لربِّ البيتِ أنَّ نزيلًا نزَلَ به؛ لأنَّ نُزولَهُ يَقْضي بأنْ يُضَيِّفوه[2]، والمُراد به في الآيةِ: الكوكبُ الذي يَظْهَرُ في السَّماء ليلًا، ويَخْتَفي نهارًا، ولهُ فوائدُ عظيمَةٌ: معنويَّة وأُخْرى حسّيَّة، لا يقوم بها في حياة النّاس مخلوقاتٌ غيرها، فهو يطرقُ مُسْتَرِقي السَّمع فيُبدِّد شَمْلَهم، ويُهلك مَنْ أراد اللّه تَعالى منهم؛ لأجل هدايةِ النّاس بالقرآنِ في الطُّرق المعنويَّة، وظهورُه وإشراقُه في السَّماء لهدايةِ النّاس في الطُّرق الحسّيَّة[3]، وهذا يعني: أنَّ اللّه تعالى أقسم بالسَّماء وما خلق فيها مِن الكواكبِ التي تُضيءُ عندَ طُلوعِها ليلًا وتَخْتَفي نهارًا[4]، تنبيهًا على ما فيهما من عجيبِ الصَّنعة، ودلائل القُدرة، وعظيم الفائدةِ والأثَر في حياة النّاس.

بلاغة المجاز في (الطّارِقِ):

لظهور النُّجوم في السَّماء ليلًا فوائدُ لا تُنْكَر

تسميةُ النَّجم الذي يَظْهَر في السَّماء ليلًا، ويطرق الجِنّيَّ فيصكُّه بـ (الطّارِقِ) استعارةٌ تصريحيَّة؛ شُبِّه فيها النَّجمُ بالضَّيف الذي يأتي ليلًا، فيطرق الأبوابَ أو الأحجار[5]، ثُمَّ حُذف المُشَبَّه واستُعير له المُشَبَّه به؛ وهو (الطّارِقِ) الموضوعُ للضَّيف، بعد طيِّ التَّشبيه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 371.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 258.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 371.
(4) مجمع البحوث الإسلاميَّة: التَّفسير الوسيط: 10/ 1864.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 499، وابن قيّم الجوزيَّة، التِّبيان في أقسام القرآن، ص: 100.

وادِّعاء أنَّ المُشَبَّه فردٌ من أفراد المُشبَّه به، على سبيل التَّصريحيَّة التي تُذكِّر المُتلقّي بعظيم القُدرة، وجليل الفائدةِ التي تَتَرَتَّب على ظُهور النُّجوم ليلًا والتي يَعْرِفُها المُخاطَبون حقَّ المعرفةِ، ولا يُمْكِنُهم جحودُها ولا إنكارُها.

نوعُ الواوِ ودلالَتُها في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾:

الواوُ في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ استئنافيَّة، والجُملة بعدَها مُعترِضَة بَيْنَ القسَم وجوابِه، جيءَ بها لتفخيم المُقْسَم به وتعظيم شأنه، بإحداث نوعٍ مِنَ الإثارة والتَّهييج إلى إدراكِ ما فيه مِن أوجُهِ الإبداع والقُدْرَة والفائدة، فلمّا كان ﴿ٱلطَّارِقُ﴾ يُطْلَقُ على غير النَّجم أبْهَمَهُ أوَّلا، ثُمَّ عظَّم المُقْسَم به بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾؛ أي: ما عرَّفك يا أشرَفَ خَلْقِنا، وإنْ حاولتَ معرفةَ ذلك، وبالغتَ في الفَحصِ عنه[1]؟.

تفخيمُ المُقْسَم بـهِ وتَعْظيمُ شأنِهِ.

بلاغَةُ الاسْتِفْهامِ في قولِهِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أسلوبُ اسْتِفْهام، غرضُه إثارةُ المُتَلَقّي وتشويقُه إلى ترقُّب ما سَيُفْصِحُ عنه النَّظمُ الكريم مِنَ التَّعريف بـ ﴿ٱلطَّارِقُ﴾، وبيان حقيقتِه التي لا سبيلَ أمام أحدٍ إلى إدْراكها؛ لرفعة شأنِه وعظمةِ خَلْقِه، بدرجةٍ لا يصِلُ إليها إدراكُ النّاس، ما يعني: أنَّ المتَلَقّي لا يعلم حقيقةَ المُقْسَم به، ولا سبيلَ له إلى ذلك، ولا بدَّ من تلَقّيها من الخلّاق العليم[2].

حقيقةُ المُقْسَمِ بـهِ لا يحيطُ بها إلّا الخلّاق العليمُ

نكتَةُ إيثارِ الاسْتِفْهامِ بـ(ما):

يجوزُ أن يكونَ غَرَضُ الاستفهام في جُمْلَة: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ إنكارَ درايةِ المُتَلقّي حقيقةَ الطّارق، ونَفْيَ علمِه بعظيم شأنه، وجليل فائدتِه، وبديعِ خلقه، وأوثر الاستفهامُ فيهِ بـ (ما)؛ لدلالتِه بمَعْناهُ

لا يُمْكِنُ لِلمُتَلَقّي أن يَصِلَ إلى حقيقَةِ الطّارق بنَفْسِه

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 372، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 258.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 140.

ومبناه - المختوم بألف المدِّ - على المُبالغَةِ في نَفْيِ قُدْرَة المُتَلَقّي على إدراكِ حقيقةِ الطّارق بنفسه، وعَدَم قُدْرَة أيِّ أحدٍ أو شيء على تعريفه به أيضًا، والمعنى: وأيُّ شيءٍ أَعْلَمَكَ ما الطّارقُ؟.

سِرُّ إيثار فِعْلِ الدِّراية دون غيرِه:

لن يُـدْرِكَ المَـرْءُ ماهيَّةَ الطّارقِ لـعَـظَـمَـتِـه وفخامَتِه

أوثر التَّعبيرُ في جُملة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ بفعل الدِّراية الموضوعِ للمَعْرِفَة المُدْرَكَة بضَرْبٍ من الحيلَةِ؛ للدَّلالة على أنَّه لا طاقَةَ للإنسانِ بمعرفة ماهيَّة المفعول مَهْما بذَلَ من جُهْدٍ، ومهما أعمل من فِكْرٍ؛ لتعلُّق أمرِه بشيء يَعْظُمُ عَن أن يُحيط الإنسانُ به[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بـ (ما أدْراكَ) دون (ما يُدْريكَ):

آياتُ الله تَعالى مُحقَّقة الوقوعِ

الاستفهام في (ما أدْراكَ) مقصودٌ به الإنكارُ والتَّهويل، ما من شأنِه أن يَجْعَل مفعولَ فعلِ الدِّراية مُحَقَّقَ الوقوع، في حين أنَّ الاستفهامَ في قوله: (وَما يُدْريكَ) غرضُهُ النَّفي، ما يعني أنَّ المفعول فيه غيرُ مُؤَكَّد الوقوع، ولهذا قيل: "كلُّ موضع ذُكر في القرآن ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾؛ فقد عَقَّب ببيانه، نحو: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القارعة: 10 - 11]، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: 2 - 3]، وكلُّ مَوْضِعٍ ذُكِر فيه: (وَما يُدْريكَ) لم يُعَقِّبْهُ بذلك، نحو: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ [عبس: 3]، وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝١٧﴾ [الشّورى: 17]"[2].

بيانُ مَرْجِعِ الضَّمير المنصوب في ﴿أَدْرَىٰكَ﴾:

شـأنُ الـطّـارق خفيٌّ يثير الأنامَ، ويُشَوِّق الأفهامَ

يجوزُ أن يكون المُخاطَبُ بالضَّمير المنصوب في الفعل: ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ رسولَ الله ﷺ، وهذا يعني: أنَّه إذا كانت حقيقةُ الطّارق خافيةً عليه؛ فإنَّها خافيةٌ على غيره من بابٍ أوْلى. وجائزٌ أن يكونَ الضَّميرُ لغَيْرِ معيَّنٍ، فيكون ضمير الخطابِ خارجًا عن أصلِهِ في الدّلالةِ على

(1) الرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (درى)، والعسكري، الفروق اللُّغويَّة: 92.
(2) الرّاغب، المُفردات: (درى)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 114.

معيَّنٍ مشاهَدٍ؛ قصدًا لإرادَةِ العموم، فيشمَلُ العبادَ أجمعينَ. وفي كلا الأمرَيْنِ تفخيمٌ للطّارق وتشويقٌ إلى ما يُزيل اللِّثامَ عنهُ.

فائِدَةُ تَكْرارِ (ما):

إثـارةُ النُّفوسِ إلى معرفةِ سِرِّ تخصيصِ الطّارقِ بالقسَمِ دونَ مـا في السَّماء

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا ٱلطَّارِقُ﴾ اسمُ استفهامٍ عن حقيقةِ الطّارق وماهيَّته، وقد أوثِرَ تكرارُه معَ قُرب العَهْدِ به؛ لدلالتِه بمَعْناهُ ومبناهُ - المختوم بألف المدِّ - على بلوغ المستَفْهَم عنه في الفخامةِ وعُلوِّ الشَّأن مبلَغًا عظيمًا لا تقديرَ لعَظَمَتِه، ولا يُمكِنُ لأحد مِن الخَلْقِ أن يُحيط بها إلّا إذا بُيِّن لَهُ؛ ما مِن شأنه أن يزيدَ مِن إثارة النُّفوس إلى ترقُّب ما يُفْصِحَ عن ماهيَّته، ويُبَيِّنَ سببَ الإقسامِ به، وسِرَّ تخصيصِه بالذِّكر دون غيره ممّا في السَّماء.

سِرُّ الإظهارِ في موضعِ الإضْمارِ:

بيانُ رفعةِ شأنِ الطّارقِ وتعظيمِ أمْرِهِ

في قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ إظهارٌ في موضعِ الإضمار؛ لأنَّ مُقْتَضى الظّاهر أن يُقال: (وما أدراك ما هو)، لكنَّ البيانَ الكريمَ عَدَلَ عن التَّعبير بالضَّمير إلى الظّاهِر، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ زيادةً في رفعة شأنِ الطّارق، وتعظيمِ أمْرِه، وتنبيهًا على التَّشوُّفِ إلى ما يُذْكَرُ بعدُ مِنْ بيانِ حقيقتِهِ.

نوع (أل) ودلالَتُها في ﴿ٱلنَّجْمُ﴾:

العـظـمَـة والإبداعِ والثَّقب أمورٌ مُتحقِّقة في جِنْسِ النُّجوم

(أل) في ﴿ٱلنَّجْمُ﴾ يجوزُ أن تكون لتعريفِ الجِنْسِ، فيستغرِق التَّعبيرُ جميعَ النُّجوم استغراقًا حقيقيًّا؛ لأنَّ لِكُلِّ كَوْكَبٍ ضوءًا ثاقبًا لا محالة، فكأنَّه قيل: والنُّجوم، إلّا أنَّ الإفراد في ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ ظاهرٌ في إرادة نجْمٍ مُعيَّن، ويَحْتَمِلُ أن تكون لتَعْريفِ العَهْدِ إشارةً إلى نجم معروفٍ يُطلق عليه اسمُ النَّجم غالبًا؛ أي: والنَّجم الذي هو طارِقٌ، ويُناسِب أن يكون نَجْمًا يطلُع في أوائل ظُلمة اللَّيل، وهي الوقت المعهودُ لطُروقِ الطّارقين من السّائرين، وجائزٌ أن يكون هوَ النَّجمَ المُسَمَّى: الشّاهدَ؛ وهو نَجْمٌ يظهَر عقِب غروب الشَّمس، وبه

سُمِّيَتْ صلاةُ المغربِ: صلاةَ الشّاهد، أو هو نجمٌ معهود بالثَّقب يُسَمَّى: زُحل[1]، " وقيل: الثُّرَيّا، وقيل: الجدي، وقيل: نجم في السَّماء السّابعة لا يسكُنُها غيرُه، فإذا أَخَذَتِ النُّجومُ أَمْكِنَتَها من السَّماء؛ هبَطَ فكانَ معها، ثُمَّ يرجِعُ إلى مكانِهِ مِن السَّماء السّابعة، ... فهو طارقٌ حين ينزِلُ وحينَ يصعَدُ، وفي إيراده عندَ الإقسام به بوصف مُشترك بينَه وبَيْنَ غيره، ثُم الإشارة إلى أنَّ ذلك الوصفَ غيرُ كُنْهِ أمرِه، وأنَّ ذلك مِمّا لا تبلغه أفكار الخلائق، ثُمَّ تفسيره بـ ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ مِن تفخيمِ شأنِهِ، وإجلال مَحَلِّه ما لا يَخْفى"[2].

سِرُّ الوَصْفِ بـ ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾:

الـكَـشْـفُ عن جـلـيـل فـائـدة النَّجم المُقسم به

في وصْف ﴿ٱلنَّجْمُ﴾ بـ ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ زيادةُ تفخيم وتعظيم للمُقْسَم به، وكَشْفٌ عن جليل فائدته للنّاس أجمعين، وإجلال مَحَلِّه، فبِهِ يُعرف أنَّه النَّجْمُ المُتوهِّجُ العالي المُضيءُ، الذي يَثْقُبُ الظَّلامَ بنوره فينفُذ فيه، أو يَثْقُبُ بضوئِهِ الأفلاك فتَشِفُّ عنه، أو يثقب الشَّيطانَ بنارِه إذا استرق السَّمع[3].

نوعُ الاستعارةِ وبلاغَتُها في ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾:

الضَّـوء الخـارجُ مِـنَ الـنَّـجـم المُقْسَم به شديدٌ ظاهرٌ

الثَّقْبُ: خَرْقُ شيءٍ مُلْتَئِم، وهو هُنا مُستعارٌ لظهور النّور في خلال ظُلمة اللَّيل؛ حيث شُبِّه النَّجم بمِسْمارٍ أو نحوه، وظهورُ ضوئِهِ بظُهور ما يَبْدو مِن المِسْمار مِن خلال الجِسْم الذي يثقبُه مثل لَوْحٍ أو ثوبٍ، ثُمَّ استعير الثَّقْبُ لظُهور الضَّوء وبُروزِه بعد طيِّ التَّشبيه وادِّعاء أنَّ المشبهَ فردٌ من أفراد المشبَّه به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التي تُبْرِزُ جانبًا مِن عظيم الصَّنعة وكمالِ القُدْرَة وشِدَّة الضَّوء الخارج مِن النُّجوم بصفةٍ عامَّةٍ ومِنَ النَّجم الثّاقب بصفةٍ خاصَّة.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 372، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 140، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 259.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 140.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 372.

واستعارةُ الثَّقْبِ لبُروزِ شُعاع النَّجم في ظُلْمَة اللَّيل مِن مُبْتَكَراتِ القرآنِ، التي لَم تَرِد في كلام العرب قبلَ التَّعبير بها في القرآن الكريم[1].

وجهُ المناسبة بين القسَمِ وجوابِه:

حفظُ كُلِّ ما يتَّصلُ بالنَّفس الإنسانيَّة أمرٌ سهلٌ إذا قورن بحِفْظِ السَّماءِ ونجومِها

المُقْسَم عليه هُنا: حالُ النَّفس الإنسانيَّة والاعتناء بها بإقامة الحفَظَةِ عليها، وأنَّها لم تُترك سُدًى، بل قد أُرْصِد عليها مَن يحفَظُ عليها أعمالَها ويُحْصيها[2]، وهذا هو المَفهومُ مِنَ التَّعبير بجُمْلَة: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ جَوابًا للقسَم، ووجه المُناسبة بَيْنَ القسَم بالسَّماء وما فيها مِن نُجوم ثاقِبَةٍ، وبَيْنَ حِفْظِ أعمالِ النَّفس الإنسانيَّة: أنَّه إذا كانت هذه المخلوقاتُ على عَظَمَتِها وكِبَرِ حَجْمِها محفوظةً عن أدْنى زيغ، وهي مخلوقَةٌ لتَدْبير مصالحِ الإنسان؛ فما الظَّنُّ به[3] وبِعَمَلِه وأجَلِه، وغير ذلك من الأشياء التي لا تُمَثِّل في ضَخامَتِها وعظَمَتِها شيئًا بالنِّسبة للسَّماء ونجومها ما يعني: أنَّها سهلةٌ على الحِفْظِ مِن بابٍ أوْلى.

التَّوجيه البَلاغيُّ للقِراءاتِ المُتواتِرَةِ في ﴿لَّمَّا﴾:

الله تعالى يعلَمُ أفعالَ النّاس بعامَّة وأفعال المُشركين خاصَّة، وسَيُجازيهم عليها

اختلف القُرّاءُ في ﴿لَّمَّا﴾، فقرأ الجُمْهورُ: ﴿لَّمَا﴾ بتخفيف الميم، وقرأ ابنُ عامر وحمزةُ وأبو جعفرٍ وعاصمٌ بتشديد الميم ﴿لَّمَّا﴾[4]، وعلى قراءة تخفيف الميم تكون ﴿إِن﴾ مخفَّفةً مِنَ الثَّقيلة، و﴿لَّمَا﴾ مُركَّبة من اللّام الفارقة بَيْنَ (إنْ) النّافية و(إنْ) المخفَّفة من الثَّقيلة، ومعها (ما) الزّائدة بعد اللّام للتَّأكيد، ومعنى الكلام: إنَّ الأمرَ والشَّأن أنَّ كلَّ نفسٍ لَعَلَيْها حافظٌ، وعلى قراءة تشديد الميم تكونُ ﴿إِن﴾ نافيةً و﴿لَّمَّا﴾ حرفٌ بمعنى: (إلّا)، والمعنى: ما كلُّ نفسٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 259.
(2) ابن قيِّم الجوزية، التِّبيان في أقسام القرآن، ص: 101.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 372.
(4) ابن الجزري، النَّشر في القراءات العشر: 2/ 291.

إلّا عليها حافظٌ مُهَيْمِنٌ رقيبٌ، وقد تضمَّن هذا الجوابُ - زيادَةً على إفادته تحقيقَ الجزاءِ - إنذارًا للمُشركين بأنَّ اللّه تَعالى يَعْلَمُ اعتقادَهُم وأفعالَهم وأنَّه سيُجازيهم عليها[1].

بلاغَةُ التَّوكيد في جُمْلَةِ الجَوابِ:

حفظُ الأعمالِ سنَّةٌ مُتَّبَعةٌ، وشأنٌ دائمٌ لا يتوقَّفُ ولا ينقطعُ

جاء قولُه تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ الواقعُ جوابا للقسَمِ مُؤكَّدا بالجُملة الاسميَّة، وبـ ﴿إِن﴾ المُخفَّفة من الثَّقيلة، وضمير الشَّأن الدّالِّ على أنَّ ذلك سنَّةٌ مُتَّبعةٌ وشأنٌ دائمٌ لا يَنْقَطِع ولايتخلَّف، والتَّعبير بلفظ ﴿كُلُّ﴾ المُفيدِ للاستغراق، مُضافًا إلى لفظ ﴿نَفْسٍ﴾ نكرةً، و﴿لَّمَّا﴾ التي بمعنى (إلّا): جارٍ على ما يقتضيه ظاهرُ المُخاطَبين الموغلينَ في إنكار البَعْث، وما يترتَّب عليه من الجزاء، فجاء الرَّدُّ عليهم بالمُبالغَةِ في إثبات حِفْظِ الأعمال والأقوالِ الدّالَّة على ثبوتِ البَعْثِ وحَتْميَّته، فهو بمنزلةِ الدَّليل على إثْباتِه، فإنَّ إقامةَ الحافظِ تَسْتَلْزِمُ شيئًا يَحْفَظُه، وهو الأعمالُ خيرُها وشرُّها، وذلك يستلزمُ المُحاسبة عليها والجزاء بما تَقْتَضيه، جَزاءً مُؤَخَّرًا بعد الدُّنيا لئلّا تذهبَ هذه الأعمالُ سُدًى[2].

دلالَةُ التَّعبير بلَفْظِ ﴿نَفْسٍ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

حِفظُ أعمالِ النُّفوس حاصلٌ في كُلِّ الأحوالِ

عبَّر النَّظم الكريمُ عَن الإنسانِ بلَفْظِ ﴿نَفْسٍ﴾ لشُمولِها الجَسَدَ والدَّمَ والرّوحَ والعَيْنَ وسائرَ أعضاءِ البدَنِ[3]، وهو ما يعني شموليَّةَ الحفظِ والإحصاء كُلَّ ما يَصْدُر عن الإنسان مِن أقوالٍ وأفعال، وعدم اقتصارِه على شيءٍ بعَيْنِه، أو عضوٍ دون غيرِه، وجيء به نكرةً لِما يُفيدُهُ التَّنكير الواقع في سياق النَّفي مِن عموم الحِفْظِ كُلَّ النّفوس ولا سيَّما نفوس العاقِلين، والمَعْنى: ما كلُّ نفسٍ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 373، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 141، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 260، 261.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 260.

(3) الجوهري، تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة: (نفس).

كائنةٍ في حالٍ مِنَ الأحوال إلّا في حالِ أن يكونَ عليها حافظٌ؛ أي: مُهَيْمِنٌ ورقيبٌ[1].

دلالة دخول حرف الاستعلاء على ضمير النَّفس:

لكلِّ نفس حافظٌ خاصٌّ بها، لا يُفارقها ولا يتركها

قولُه: ﴿عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ جُملة اسميَّة في محلِّ رفع خبر ﴿كُلُّ﴾، والجارُّ والمجرور ﴿عَلَيْهَا﴾ خَبَرٌ مقدَّم، أوثر التَّعبير فيه بحرف الاستعلاء للدَّلالة على تمكُّن الحافظ من أعمال الإنسان وقُدرته التّامة على معرفتها، حتَّى وإن حاول إخفاءها عن أقرب النّاس إليه، وجُرَّ به ضمير النَّفس للإشارة إلى أنَّ لكلِّ نفس حافظًا خاصًّا بها، لا يُفارقها ولا يتركها، ويقوم بتسجيل ما لها وما عليها، كما قال تعالى فيما سبق بيانه من سورة (ق): ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: 18].

وجهُ تقديم الخبَرِ على المُبْتَدَأ:

الحافظ معنيٌّ بالتَّسجيل؛ ليَشْهَدَ بما سجَّله يومَ القيامةِ

﴿عَلَيْهَا﴾ خبرٌ مقدَّمٌ، و﴿حَافِظٌ﴾ مُبتدأٌ مُؤَخَّر، ووجهُ تقديم الخبَر على المُبتدأ: هو بيان الاهتمام بتَخْصيص الله تعالى حافِظًا مُسْتَقِلًّا لكلِّ نفسٍ يقوم بتسجيلِ ما لَها وما عليها، ويَعْتَني بحفظهِ أشدَّ الاعتناء، ليَشْهَد به عليها يوم القيامة، كما قال سُبحانه: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق: 21].

دلالة التَّعبير بـ ﴿حَافِظٌ﴾ مادَّة وصيغَةً:

الحَفَظَةُ الذين يقومونَ على حِفْظِ النَّفس كثيرونَ

جيء بالمُبتَدَأ ﴿حَافِظٌ﴾ اسمًا مُشتَقًّا مُفيدا الثُّبوتَ والدَّوام للدَّلالة على أنَّ قيام المَلَكِ بالحِفْظ والتَّسجيل هو عملُه الدّائمُ الذي لا يتوقَّف ولا ينقَطِعُ ليلًا ولا نهارًا وجيء به نكرةً للدَّلالة على كثرةِ القائمين به وتَنَوُّعهم، ويجوزُ أن يُراد به: جنسُ الملائكة، فبَعْضُهُم لحِفْظِها من الآفات، وبعضُهم لحفظها من الوَساوِس، وبعضُهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 307.

لحفظ أعمالها وإحصائها بالكتابةِ، وبعضهم لحِفْظِ ما كُتب لها مِن رزق وأجلٍ وشقاوة أو سعادة، ومَشْيٍ ونكاحٍ وسفَرٍ وإقامة، فلا يفوت شيءٌ مِن ذلك[1].

بلاغة الكناية في جواب القسَم:

تسجيلُ الأعمال مِـن لـوازم ثبوتِ البَعْثِ والحِساب

جواب القسَم هُنا جُعِلَ كناية تلويحيَّةً رمزيَّة عن المقصود؛ وهو إثباتُ البَعْث، فهو كالدَّليل على إثباته، فإنَّ إقامةَ الحافظ تستلزم شيئًا يَحْفَظُه، وهو الأعمالُ خيرُها وشرّها، وذلك يستلزمُ المُحاسبَةَ عليها والجزاء بما تَقْتَضيه، جزاءً مؤخَّرا بعد الحياة الدُّنيا؛ لئلّا تذهَبَ أعمالُ العامِلين سُدًى، وذلك يستلزم أنَّ الجزاء مُؤخّرٌ إلى ما بعد هذه الحياة؛ إذِ المُشاهَدُ تخلفُ الجزاء في هذه الحياة بكثرةٍ، فلَو أهملَ الجزاء لكان إهمالُه مُنافيا لحكمة الإلهِ الحكيم مُبْدِعِ هذا الكونِ، كما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: 115]، وهذا الجزاءُ المُؤَخَّر يستلزم إعادَةَ حياةٍ للذَّوات الصّادرة منها الأعمال، فهذه لوازمُ أربَعَةٌ بها كانت الكنايةُ تلويحيَّةً رَمْزيَّةً[2].

توجيهُ مُتشابِهِ النَّظم في سورَتَي الطّارق والبُروج:

اللـه تعـالى شهيدٌ مُحيطٌ حافِظٌ، ولكنَّه جعل الحفظَ حتَّى لا يبقى لأحدٍ حُجَّةٌ

لمّا قال تعالى في سورة البروج: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ [البروج: 9]، وقال أيضا: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج: 20]، وكان في ذلك تعريفُ العبادِ بأنَّه سُبْحانَه لا يغيب عنه شيءٌ، ولا يفوته شيءٌ، ولا ينجو منه هاربٌ؛ أرْدَفَ ذلك بتفصيلٍ يَزيدُ إيضاحَ ذلك التَّعريف الجُمْليِّ من شهادته ﷻ على كلِّ شيءٍ وإحاطَته به، فقال ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، فأعْلَمَ تَعالى بخصوصِ كلِّ نفسٍ مِمَّن يَحْفَظُ أنفاسَها أنَّه ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 373.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 260.

[ق: 18]؛ ليَعْلَمَ العبدُ أنَّه ليس بمُهْمَلٍ ولا مُضيَّع، وهو سُبحانه الغنيُّ عن كتابةِ الحفظَة وإحصائهم، وشهادة الشُّهود من الأعضاء وغيرهم، وإنَّما كان ذلك لإظهار عدله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ [النساء: 40]، ولا أقلَّ من المثقال، ولكنْ هي سُنَّتُه حتَّى لا يبقى لأحدٍ حُجَّة ولا تعلُّق، وأقسم ﷻ على ذلك تحقيقًا وتأكيدا يناسِبُ القَصْدَ المَذْكورَ[1].

❁ الفُروقُ المعجميّة:

الدِّراية والمعرفة والعِلم:

حقيقةُ الطّارق أكبَرُ وأعظم مِن أن تُدرِكَها عقولُ البشَرِ من غيرِ تعليمٍ إلهيٍّ

الدِّرايةُ هي: المعرفَةُ العَميقَةُ المُدْرَكَةُ بضَرْبٍ مِنَ الحيلة[2]، والمعرفَةُ: إدراكُ الشَّيء بتفكُّر وتدبُّر لأثره، وهي أخصُّ من العِلْم، وضدُّها: الإنكار[3]، أمّا العِلْمُ فهو: اعتقاد الشَّيء على ما هو به على سبيلِ الثِّقة، سواءٌ أكان ذلك بَعْدَ لَبْسٍ أم لا، ويضادُّه: الجَهْلُ[4]؛ ولَمّا كان التَّعبير واردًا في سياقِ القسَمِ الإلهيّ بـ (الطّارِق) - ومِنَ المعلوم أنَّ الله تعالى لا يُقْسِمُ إلّا بعظيمٍ - ؛ كان التّعبيرُ بفِعْلِ الدِّراية هو الأَنسبَ؛ للإشعار بأنَّ العقول البشَريَّة لن تستطيع الوصول إلى حقيقة النَّجم الذي أقسم به الله تعالى مهما تفكّرت، ومهما كَدَّتْ واجتهدت في مُحاولةِ إدراك ذلك ومعرفتِه إلّا بتعليم الله تَعالى لَهُمْ، ما يعني أنَّ حقيقة الطّارق وماهيَّتَه أكبرُ وأعظمُ مِن أن تُحيطَ بها عقولُ البشَرِ على سبيلِ الانفرادِ مِنْهُم، وهذا المعنى لا يتحقَّق إذا عُبِّر بفِعْلِ العِلْم أو بفعلِ المَعْرِفَة.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 376.
(2) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (درى).
(3) الرّاغب، المفردات: (عرف).
(4) العسكري، الفروق اللغويَّة: 95.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والستون،
سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 66 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-45-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 66 : المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-45-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6448894 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"